

مواقف في الحكمة والفراسة وسرعة البديهة

إعداد الدكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بجامعة أم القرى
والمدرسة بالمسجد الحرام

ح
عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
مواقف في الحكمة والفراسة وسرعة البديهة . / عبد العزيز عبد الله
الحميدي-ط٢..- مكة المكرمة ، ١٤٣٤ هـ
١١٨ ص ؛ .. سم
ردمك ١-٢٣٩٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- السيرة النبوية ٢- الصحابة والتابعون ٣- التاريخ الاسلامي
العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٣٤/٥٧٠٤

رقم الإيداع : ١٤٣٤ / ٥٧٠٤
ردمك: ١-٢٣٩٧ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣ م

(٢)



(٣)

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ..

وبعد : فإن هذا الكتيب يقدم نماذج جيدة لوجود مفكرين في مجتمعات المسلمين من الدرجة الأولى، وذلك في الحكام والعلماء والقضاة والقادة الذين مثلوا القمة في ذلك . ويشتمل هذا الكتيب على أمثلة رائعة في مجالات الفراسة الدقيقة في معرفة المحقين من المبطلين، واستعمال الحيل في الوصول إلى المقاصد الحسنة في الانتصار للمظلومين وردع الظالمين، وسرعة البديهة وحسن التخلص من المآزق ، إلى غير ذلك مما يجعل هذا المستوى الرفيع مما تفاخر به الأمة الإسلامية.

مكة المكرمة

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه

أخرج المؤرخ عمر بن شبة من خبر سعيد بن عبد العزيز : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أغزى جيشا فغزا فيهم فتى كان يدنو من عمر رضي الله عنه ويألفه ، فأوصى به عمر صاحب البعث خيرا ، فكان معه ، فراودته جارية لصاحب الجيش أو لرفيق له عن نفسها فامتنع منها ، فأخذت نفقةً لسيدها فجعلتها في عيبة الفتى ، فافتقدها صاحبها فوجدها في عيبة الفتى ، فقطع يده ، ثم أراد حسمها بالنار فامتنع عليهم فمات .
فلما قفل الجيش سأل عمر رضي الله عنه عن الفتى ، فأخبروه بأمره ، قال : وييد عمر رضي الله عنه عصا ، فجعل ينكت بها الأرض ويقول : والله مازنى

وماسرق ، والله مازنى وماسرق! هل كانت معكم
جارية؟ قالوا: نعم ، قال : إيتوني بها ، فأتوه بها فسألها
فاعترفت ، فأمر بها عمر رضي الله عنه فقُتِلت به .
قال سعيد : فمن يومئذ قال عمر رضي الله عنه :
لا يقطع إلا إمام .

قال سعيد : وكتب عمر بن الخطاب رضي الله
عنه : من استعملناه منكم فليجعل الرفق - يعني
العدل والأمانة - ^(١) .

فهذه فراسة صادقة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ،
حيث أدرك أولاً أن دين ذلك الفتى يمنعه من
ارتكاب الفواحش، ثم أدرك ثانياً أنه قد وقع في

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٨٢٠-٨٢١ .

حبائل امرأة شيطانة فكادت له حتى أوقعته في تهمة
هو برئ منها .

وهكذا ظهرت لنا صفة من صفات أمير المؤمنين
عمر التي تميز بها ، فكم هي الصفات السامية
والأخلاق العالية التي تفوق فيها !!

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من
خبر الأحنف بن قيس قال: ماسمع الناس بمثل عمر
ابن الخطاب في باب الدين والدنيا ، كان منور القلب
فطنا بجميع الأمور ، بيناه يطوف ذات ليلة سمع
امرأة تقول في الطواف وهي تنشد :
فمنهن من تُسقى بعذب مبرد

نُقاخ فتلكم عند ذلك قرّرتِ

ومنهن من تُسقى بأخضر آجن
أجاج ولولا خشية الله فرّت
ففطن رحمه الله إلى ماتشكو ، فبعث إلى زوجها ،
فقال لرجل : استنكه فمه ، فوجده متغير الفم فخيره
بين خمسمائة درهم وجارية من الفيء على أن يطلقها ،
فاختار خمسمائة والجارية فطلقها ^(١) .
فهذا أسلوب بليغ في الشكوى من تلك المرأة ،
وفكر لمّاح وعاطفة جياشة ونظرة رحيمة حانية من
أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فقد فهم مشكلة
تلك المرأة التي عبّرت عنها بالتلميح ، وحل مشكلتها

(١) تاريخ دمشق ٤٤/٣٥٥ .

بعدل وحزم ، وهكذا تكون سياسة العدل والرحمة
والشعور بالمسؤولية .

مثل من حكمته في علاج المشكلات :

من مواقف أمير المؤمنين حُسن تصرفه في
مواجهة المفاجآت والنواب ، ومن أمثلة ذلك ما
أخرجه الإمام البخاري ومسلم من حديث ابن
عباس رضي الله عنهما « أن عمر بن الخطاب رضي
الله عنه خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بسَرغ لقيه
أمراء الأجناد - أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه -
فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن
عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ،
فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع في

الشام ، فاختلّفوا فقال بعضهم : قد خرجنا لأمر
ولانرى أن نرجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية
الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولانرى أن تُقدمهم
على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع
لي الأنصار ، فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل
المهاجرين واخلّفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا
عني ، ثم قال : ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش
من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه
رجلان : فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم
على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس : أي مُصْبِح
على ظهر فأصبحوا عليه ، فقال أبو عبيدة بن الجراح :
أفرارًا من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا

عبيدة ، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت إن كانت لك إبل هبّطت وادياً له عُدتان: إحداهما خصيبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيتَ الخصيبة رعيتها بقدر الله وإن رعيتَ الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف- وكان متغيّياً في بعض حاجته- فقال: إن عندي في هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه.

قال : فحمد الله عمر ، ثم انصرف ^(١)

(١) صحيح البخاري ، كتاب الطب رقم ٥٧٢٩ (الفتح

١٠/١٧٩)؛ صحيح مسلم ، كتاب السلام رقم (٢٢١٩).

ويمكن تلخيص المواقف التي تتجلى في هذا

النص فيما يلي :

١ - اهتمام عمر رضي الله عنه بتطبيق مبدأ الشورى في الأمور المهمة ، ونجد أنه بدأ بالمهاجرين الأولين ، ثم بالأنصار ، ثم بالمهاجرين بعد فتح مكة ، وذلك أن من كان في الإسلام أقدم كان به أعلم فهو أولى بأن يقدم في المشورة ، فأمر الشورى في الإسلام يدور دائماً على العلماء بهذا الدين .

وقد أخذ عمر رضي الله عنه برأي الكثرة من أهل الرأي ، قال الحافظ ابن حجر في بيان فوائد الحديث : وفيه الترجيح بالأكثر عدداً والأكثر تجربة لرجوع عمر لقول مشيخة قريش مع ما انضم إليهم

ممن وافق رأيهم من المهاجرين والأنصار ، فإن مجموع ذلك أكثر من عدد من خالفه من كل من المهاجرين والأنصار^(١) .

وهذا يفيد بأن الكثرة أمر ملحوظ في المشورة إذا كان المستشارون من أهل الدين والرأي السديد .

٢ - فقه عمر وسعة تفكيره حينما قال : أفرُّ من قدر الله إلى قدر الله ، قال الحافظ ابن حجر في بيان كلام عمر هذا : وأطلق عليه فرارا لشبهه به في الصورة وإن كان ليس فراراً شرعياً، والمراد أن هجوم المرء على ما يهلكه منهي عنه ، ولو فعل لكان من قدر الله ، وتجنبه مايؤذيه مشروع وقد يقدر الله وقوعه فيما

(١) الفتح ١٠/١٩٠ .

فرَّ منه فلو فعله أو تركه لكان من قدر الله ، فهما
مقامان: مقام التوكل ومقام التمسك بالأسباب^(١) .
وقد أكد عمر رضي الله عنه بيان اجتهاده هذا
بضرب هذا المثل المقتنع فيمن هبط بماشيته وادياً له
عُدوتان ، يعني جانبان مرتفعان ، أحدهما خصيب
والآخر جرد ، فهو إن ساق ماشيته نحو الخصب
ساقها بقدر الله ، وإن ساقها نحو الجرد ساقها بقدر
الله ، وإذا كان راعي الماشية مسؤولاً عن أن يرتاد لها
ما ينفعها وأن يحوزها عما يضرها فإن مسؤولية
الولاية في الأمة أعظم من ذلك بكثير .

(١) الفتح ١٠/١٨٥ .

وقد كان من تمام التوفيق أن وافق اجتهاد عمر
وماعزم عليه من الرجوع أمر النبي ﷺ الذي كان
محفوظاً عند عبد الرحمن بن عوف وهو قوله في هذا
الوباء « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا
وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ».

أما بيان هذا الحديث فقد أفاض فيه الحافظ ابن
حجر حيث نقل عن الإمام الطحاوي قوله: والذي
يظهر والله أعلم أن حكمة النهي عن القدوم عليه لئلا
يصيب من قدم عليه بتقدير الله فيقول: لولا أني
قدمت هذه الأرض لما أصابني ، ولعله لو أقام في
الموضع الذي كان فيه لأصابه، فأمر أن لا يقدم عليه
حسماً للمادة ، ونهي من وقع وهو بها أن يخرج من

الأرض التي نزل بها لئلا يسلم فيقول مثلاً : لو أقمت
في تلك الأرض لأصابني ما أصاب أهلها ، ولعله لو
كان أقام بها ما أصابه من ذلك شيء أ.هـ .

قال الحافظ : ويؤيده ما أخرجه الهيثم بن كليب
والطحاوي والبيهقي بسند حسن عن أبي موسى -
يعني الأشعري رضي الله عنه - أنه قال : " إن هذا
الطاعون قد وقع ، فمن أراد أن يتنزّه عنه فليفعل ،
واحذروا اثنتين ، أن يقول قائل : خرج خارج فسلم ،
وجلس جالس فأصيب فلو كنت خرجت لسلمت
كما سلم فلان ، أو لو كنت جلست أُصبت كما أُصيب
فلان " قال : لكن أبا موسى حمل النهي على من قصد
الفرار محضاً ، ولا شك أن الصور ثلاث ، من خرج

لقصد الفرار محضاً فهذا يتناوله النهي لا محالة ، ومن
خرج لحاجة متمحضة لا لقصد الفرار أصلاً ،
ويتصور ذلك فيمن تهباً للرحيل من بلد كان بها إلى
بلد إقامته مثلاً ولم يكن الطاعون وقع فاتفق وقوعه
في أثناء تجهيزه فهذا لم يقصد الفرار أصلاً فلا يدخل
في النهي ، والثالث من عرضت له حاجة فأراد
الخروج إليها وانضم إلى ذلك أنه قصد الراحة من
الإقامة بالبلد التي وقع بها الطاعون فهذا محل
النزاع، ومن جملة هذه الصورة الأخيرة أن تكون
الأرض التي وقع بها وخمة، والأرض التي يريد
التوجه إليها صحيحة فيتوجه بهذا القصد ، فهذا جاء
النقل فيه عن السلف مختلفاً ، فمن منع نظر إلى صورة

الفرار في الجملة ، ومن أجاز نظر إلى أنه مستثنى من
عموم الخروج فرارًا لأنه لم يتمحض للفرار وإنما هو
لقصد التداوي ، وعلى ذلك يحمل ما وقع في أثر أبي
موسى المذكور « أن عمر كتب إلى أبي عبيدة : إنَّ لي
إليك حاجة فلا تضع كتابي من يدك حتى تقبل إليّ ،
فكتب إليه : إني قد عرفت حاجتك ، وإني في جند من
المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فكتب إليه : أما
بعد فإنك نزلت بالمسلمين أرضاً غميقة فارفعهم إلى
أرض نزهة ، فدعا أبو عبيدة أبا موسى فقال : اخرج
فارتدّ للمسلمين منزلاً حتى انتقل بهم .

قال : فذكر القصة في اشتغال أبي موسى بأهله
[يعني لما اصيبت بالطاعون] ووقوع الطاعون بأبي

عبيدة لما وضع رجله في الركاب متوجها ، وأنه نزل
بالناس في مكان آخر فارتفع الطاعون .

قال : وقوله « غميقة » أي قريبة من المياه
والنزوز وذلك مما يفسد غالبا به الهواء لفساد المياه ،
والنَّزْهَة الفسيحة البعيدة عن الوخم .

قال : فهذا يدل على أن عمر رأى أن النهي عن
الخروج إنما هو لمن قصد الفرار متمحضا، ولعله
كانت له حاجة بأبي عبيدة في نفس الأمر فلذلك
استدعاه ، وظن أبو عبيدة أنه إنما طلبه ليسلم من
وقوع الطاعون به فاعتذر عن إجابته لذلك ، وقد كان
أمر عمر لأبي عبيدة بذلك بعد سماعها للحديث

المذكور من عبد الرحمن بن عوف فتأول عمر فيه ما
تأول ، واستمر أبو عبيدة على الأخذ بظاهره .

قال : وأيد الطحاوي صنيع عمر بقصة العرنيين
فإن خروجهم من المدينة كان للعلاج لا للفرار^(١) .

هذا وقصة العرنيين كانت في عهد النبي ﷺ
وكانوا قد وفدوا إلى المدينة فاستوخموها فأمرهم أن
يخرجوا خارج المدينة وأن يشربوا من ألبان الإبل
وأبوالها ، كما جاء في رواية الإمام البخاري^(٢) .

ونقل الحافظ ابن حجر عن الشيخ تقي الدين
بن دقيق العيد قوله: الذي يترجح عندي في الجمع

(١) فتح الباري ١٠/١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الطب رقم ٥٧٢٧ .

بينهما - يعني عدم القدوم وعدم الخروج - أن في الإقدام عليه تعريض النفس للبلاء ولعلها لاتصبر عليه، وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر أو التوكل فَمُنِعَ ذلك حذرًا من اغترار النفس ودعواها ما لا تثبت عليه عند الاختبار ، وأما الفرار فقد يكون داخلاً في التوغل في الأسباب بصورة من يحاول النجاة بما قدر عليه ، فأمرنا الشارع بترك التكلف في الحالتين ، ومن هذه المادة قوله ﷺ «لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا» فأمر بترك التمني لما فيه من التعرض للبلاء وخوف اغترار

النفس إذ لا يؤمن غدرها عند الوقوع ، ثم أمرهم
بالصبر عند الوقوع تسليماً لأمر الله تعالى ^(١) .

عام الرمادة ومواقف لعمر رضي الله عنه :

من صفات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
التي تميز بها مقدرته على الخروج من الشدائد وسياسة
الأمور في زمن النكبات والجوائح .

ومن أبرز الأمثلة في ذلك ما جرى في عام
الرمادة حيث كان في العام الثامن عشر جذب شديد
عم أرض الحجاز .

قال الحافظ ابن كثير : وسميت - يعني تلك
السنة - عام الرمادة لأن الأرض اسودت من قلة

(١) فتح الباري ١٠ / ١٩٠ .

المطر حتى عاد لونها شبيها بالرماد وقيل : لأنها تسفي
الريح ترابا كالرماد ويمكن أن تكون سميت لكل
منهما والله أعلم ^(١) .

وأخرج ابن جرير الطبري بإسناده عن عدد من
الشيوخ قالوا : أصابت الناس في إمارة عمر رضي الله
عنه سنةً بالمدينة وماحولها ، فكانت تسفي إذا ريحت ^(٢)
تراباً كالرماد ، فسَمِّي ذلك العام عام الرمادة ، فألى
عمر ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحمًا حتى يجيى
الناس من أول الحيا، فكان بذلك حتى أحيى الناس
من أول الحيا ، فقدمت السوق عكة من سمن

(١) البداية والنهاية ٧ / ٩٠ .

(٢) ريحت : أصابتها الريح .

ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين ، ثم
أتى عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد أبر الله يمينك ،
وعظّم أجرك ، قدم السوق وطب من لبن وعُكّة من
سمن ، فابتعتها بأربعين ، فقال عمر : أغليت بهما ،
فتصدق بهما ، فإني أكره أن أكل إسرافاً . وقال عمر :
كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنني مامسّهم! ^(١)
وأخرج محمد بن سعد من خبر عبد الله بن زيد
ابن أسلم عن أبيه عن جده قال : كان عمر يصوم
الدهر ^(٢) قال : فكان زمان الرمادة إذا أمسى أُتِي بخبز

(١) تاريخ الطبري ٩٨/٤ .

(٢) صوم الدهر غير مشروع ولم يعرف هذا عن عمر ، فلعل المراد
أنه يكثر من سرد الصوم .

قد تُردُّ بالزيت إلى أن نحروا يوماً من الأيام جزوراً
فأطعمها الناس ، وغرفوا له طيبها فأُتي به فإذا فدرٌ
من سنامٍ ومن كبِدٍ ، فقال : أنى هذا ؟ قال : يا أمير
المؤمنين من الجزور التي نحرنها اليوم ، قال : بَخْ بَخْ
بئس الوالي أنا إن أكلتُ طيبها وأطعمتُ الناس
كراديسها ، ارفعْ هذه الجفنة ، هات لنا غير هذا
الطعام . قال فأُتي بخبزٍ وزيت ، قال فجعل يكسر
بيده ويثردُ ذلك الخبز ثم قال : ويحك يا يرفاً ! احملْ
هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بَشَمْعٍ فإني لم آتهم
منذ ثلاثة أيام ، وأحسبهم مُقفرين ، فضعها بين
أيديهم^(١) .

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣١٢ .

كما أخرج أيضًا من خبر عبد الله بن عمر رضي
الله عنهما قال : كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان
الرمادة أمرًا ما كان يفعله ، لقد كان يصلي بالناس
العشاء ثم يخرج حتى يدخل بيته فلا يزال يصلي حتى
يكون آخر الليل ، ثم يخرج فيأتي الأنقاب فيطوف
عليها وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول : اللهم
لاتجعل هلاك أمة محمد على يدي^(١) .

وأخرج الطبري من خبر عبد الرحمن بن كعب
ابن مالك قال : كانت في آخر سنة سبع عشرة وأول
سنة ثمان عشرة ، وكانت الرمادة جوعا أصاب الناس
بالمدينة وما حولها فأهلكهم حتى جعلت الوحش

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣١٢ .

تأوي إلى الأنس ، وحتى جعل الرجل يذبح الشاة
فيعافها من قبحها وإنه لمتقفر^(١).

وقال الحافظ ابن كثير : وقد روينا أن عمر عَسَّ
المدينة ذات ليلة عام الرمادة فلم يجد أحدا يضحك ،
ولا يتحدث الناس في منازلهم على العادة ، ولم ير
سائلاً يسأل ، فسأل عن سبب ذلك ف قيل له : يا أمير
المؤمنين إن السُّؤال سألوا فلم يعطوا فقطعوا السؤال ،
والناس في همٍّ وضيق فهم لا يتحدثون
ولا يضحكون ، فكتب عمر إلى أبي موسى بالبصرة :
أن ياغوثاه لأمة محمد ، وكتب إلى عمرو بن العاص
بمصر : أن ياغوثاه لأمة محمد ، فبعث إليه كل واحد

(١) تاريخ الطبري ٩٨/٤ .

منها بقافلة عظيمة تحمل البُرِّ وسائر الأطعمة ،
ووصلت ميرة عمرو في البحر إلى جدة ومن جدة إلى
مكة .

قال الحافظ : وهذا الأثر جيد الإسناد ، لكن
ذُكِرَ عمرو بن العاص في عام الرمادة مشكل، فإن
مصر لم تكن فتحت في سنة ثمان عشرة ، فإما أن يكون
عام الرمادة بعد سنة ثمان عشرة، أو يكون ذكر عمرو
ابن العاص في عام الرمادة وهما والله أعلم^(١) .
وأخرج ابن جرير الطبري من خبر عبد الرحمن
ابن كعب قال : كان ذلك - يعني حادث الرمادة -

(١) البداية ٧/٩٠ .

وعمر كالمحصور عن أهل الأمصار^(١) ، حتى أقبل
بلال بن الحارث المزني فاستأذن عليه فقال : أنا رسول
رسول الله إليك ، يقول لك رسول الله ﷺ : لقد
عهدتك كَيْسًا ومازلت على ذلك^(٢) فما شأنك ؟ فقال:
متى رأيت هذا ؟ قال : البارحة ، فخرج فنادى في
الناس فصلى بهم ركعتين ، ثم قام فقال : أيها الناس
أنشدكم الله هل تعلمون مني أمرًا غيره خير منه ؟
قالوا : اللهم لا ، قال : فإن بلال بن الحارث يزعم ذِيَّةَ
وذية - يعني كذا وكذا - قالوا : صدق بلال فاستغث

(١) يعني أنه لم يطلب المدد منهم رجاء انكشاف الغمة .

(٢) جاء في الطبري : « ومازلت على رجل » والتصويب من البداية

والنهاية .

بالله ثم بالمسلمين ، فبعث إليهم - وكان عمر عن ذلك محصورا - فقال عمر : الله أكبر بلغ البلاء مدته فانكشف ، ما أذن لقوم في الطلب إلا وقد رُفِع عنهم البلاء ، فكتب إلى أمراء الأمصار: أغِيثُوا أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَ جَهْدَهُمْ .

وأخرج الناس إلى الاستسقاء ، فخرج وخرج معه العباس ماشيا ، فخطب فأوجز ثم صلى ، ثم جثا لركبتيه وقال : اللهم إياك نعبد وإياك نستعين ، اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا ، ثم انصرف ، فما بلغوا المنزل راجعين حتى خاضوا في الغدران^(١) .

(١) تاريخ الطبري ٤/٩٨ - ٩٩ .

وجاء في رواية سيف بن عمر عن شيوخه
قالوا: كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل
المدينة ومن حولها ويستمدهم، فكان أول من قدم
عليه أبو عبيدة بن الجراح في أربعة آلاف راحلة من
طعام، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فلما فرغ
ورجع إليه أمر له بأربعة آلاف درهم، فقال: لا حاجة
لي فيها يا أمير المؤمنين، إنما أردت الله وما قبله، فلا
تُدخل عليّ الدنيا، فقال: خذها فلا بأس بذلك إذ لم
تطلبه، فأبى، فقال: خذها فإنني قد وليت لرسول الله ﷺ
مثل هذا فقال لي مثل ما قلت لك ، فقلت له كما قلت
لي ، فأعطاني فقبل أبو عبيدة وانصرف إلى عمله^(١).

(١) تاريخ الطبري ٤ / ١٠٠ .

وقد استمر هذا الحال بالناس تسعة أشهر ، ثم
تحوّل الحال إلى الخصب والدعة ، وانشمر الناس عن
المدينة إلى أماكنهم^(١) .

قال الإمام الشافعي : بلغني أن رجلا من
العرب قال لعمر حين ترحّلت الأحياء عن المدينة:
لقد انجلتُ عنك ولأنتك لابنُ حرة ، أي واسيت
الناس وأنصفتهم وأحسنيت إليهم^(٢) .

وأخرج ابن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه
قال : لما كان عام الرمادة تجلّبت العرب من كل ناحية
فقدموا المدينة فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاتاً

(١) البداية والنهاية ٧ / ٩٠ .

(٢) البداية والنهاية ٧ / ٩٠ .

يقومون عليهم ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم
فكان يزيد ابن أخت النمر ، وكان المسور بن مخرمة ،
وكان عبد الرحمن بن عبد القاريّ ، وكان عبد الله بن
عتبة بن مسعود ، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر
فيخبرونه بكل ماكانوا فيه ، وكان كل رجل منهم على
ناحية من المدينة ، وكان الأعراب حلولاَ فيما بين
رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشل
إلى البقيع إلى بني قريظة ، ومنهم طائفة بناحية بني
سلمة هم مُحَدَقون بالمدينة ، فسمعتُ عمر يقول ليلةَ
وقد تعشى الناس عنده : أحصوا من تعشى عندنا ،
فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل ،
وقال: أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى

والصبيان ، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفاً . ثم
مكثنا ليالي فزاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجدوا من
تعشى عنده عشرة آلاف والآخرين خمسين ألفاً ، فما
برحوا حتى أرسل الله السماء ، فلما مطرت رأيتُ عمر
قد وكل كل قوم من هؤلاء النفر بناحياتهم يخرجونهم
إلى البادية ويعطونهم قوتاً وحملاناً إلى باديتهم^(١) .

كما أخرج من خبر نافع مولى الزبير قال :
سمعت أبا هريرة يقول : يرحم الله ابن حنمة^(٢) لقد
رأيتُه عام الرمادة وإنه ليحمل على ظهره جرابين
وعكة زيت في يده ، وإنه ليعتقب هو وأسلم فلما رأني

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣١٦-٣١٧ .

(٢) يعني عمر بن الخطاب نسبة لأمه .

قال : من أين يا أبا هريرة ؟ قلت : قريباً ، قال
فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار فإذا
صِرْمٌ نحوُّ من عشرين بيتاً من مُحارب ، فقال عمر : ما
أقدمكم ؟ قالوا: الجَهْدُ ، قال : فأخرجوا لنا جلد الميتة
مشويّاً كانوا يأكلونه ورِمةَ العظام مسحوقة كانوا
يسفونها، فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر فما زال
يطبخ لهم حتى شبعوا ، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاء
بأبكرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ، ثم
كساهم. وكان يُختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله
ذلك ^(١) .

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣١٤ .

ومن روائع أقوال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في ذلك العام ما أخرجه ابن سعد من خبر سليمان ابن يسار قال : خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة فقال : أيها الناس اتقوا الله في أنفسكم وفيما غاب عن الناس من أمركم ، فقد ابتليتُ بكم وابتليتُم بي فما أدري السُّخْطَةُ عليّ دونكم أو عليكم دوني أو قد عمّنتني وعمّتكم ، فهلمّوا فندعُ الله يُصلح قلوبنا وأن يرحمنا وأن يرفع عنا المَحَلَّ . قال فرئى عمر يومئذ رافعاً يديه يدعو الله ، ودعا الناس وبكى وبكى الناس مَلِيًّا، ثم نزل .

وذكر ابن سعد عدة أخبار في استسقاء عمر والمسلمين منها ما أخرجه من خبر عبد الله بن نيار

الأسلمي عن أبيه قال : لما أجمع عمر على أن يستسقي
ويخرج بالناس كتب إلى عمّاله أن يخرجوا يوم كذا
وكذا وأن يتضرعوا إلى ربهم ويطلبوا إليه أن يرفع هذا
المحلّ عنهم ، قال وخرج لذلك اليوم عليه بُرْدُ رسول
الله ﷺ ، حتى انتهى إلى المصلّى فخطب الناس وتضرع ،
وجعل الناس يُلحُّون فما كان أكثر دعائه إلا
الاستغفار حتى إذا قرب أن ينصرف رفع يديه مدًّا
وحول رداءه وجعل اليمين على اليسار ثم اليسار على
اليمين ، ثم مدّ يديه وجعل يُلح في الدعاء ، وبكى
عمر بكاءً طويلاً حتى أخضل لحيته ^(١) .

(١) طبقات ابن سعد ٣/٣٢٠-٣٢١ .

وكذلك ما أخرجه من خبر السائب بن يزيد
قال : نظرتُ إلى عمر بن الخطاب يوماً في الرمادة غدا
متبدلاً متضرعاً عليه بُردٌ لا يبلغ ركبتيه ، يرفع صوته
بالاستغفار وعيناهُ تُهراقان على خديه ، وعن يمينه
العباس بن عبد المطلب . فدعا يومئذ وهو مستقبل
القبلة رافعاً يديه إلى السماء وَعَجَّ إلى ربه ، فدعا ودعا
الناس معه ، ثم أخذ بيد العباس فقال : اللهم إنا
نستشفع بعمّ رسولك إليك . فما زال العباس قائماً إلى
جنبه مليّاً والعباس يدعو وعيناه تهملان^(١) .
فهذه الأخبار فيها مواقف وعبر منها :

(١) المرجع السابق ٣/ ٣٢١ .

١ - ما قام به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
من السياسة الحكيمة الحازمة في احتواء تلك الأزمة
الكبيرة ، حيث تولى الإنفاق على القبائل العربية التي
لجأت إلى المدينة ، ورتب لهذا الأمر رجالاً يحصون
الناس ويقسمون الأرزاق بينهم .

ومع ما ذكر في الروايات المذكورة من شدة تلك
الأزمة وضرورتها فإنه لم يذكر حدوث وفيات من
الجوع ، وذلك راجع إلى السياسة الحازمة الحكيمة من
أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وإلى قوة الإيمان عند
المسلمين آنذاك ، حيث ترتب عليه التراحم والمواساة
بينهم .

وإن نجاح الصحابة بقيادة أمير المؤمنين رضي
الله عنهم في علاج تلك الأزمة والخروج منها بنجاح
ليعدُّ درساً بليغاً في الأعمال الإغاثية ، حيث تجمَّع في
المدينة وما حولها ستون ألفاً من العرب وبقوا عدة
شهور ليس لهم طعام إلا مايقدم لهم من مالية الدولة
ومن أهل المدينة ، إضافةً إلى الأعراب الذين لم يصلوا
إلى المدينة وكانت تصل إليهم الإمدادات .

٢ - أمثلة رائعة من زهد أمير المؤمنين عمر
رضي الله عنه ، ومواساته للفقراء من رعيته في المعيشة
، مع ما حصل له من ضرر في بدنه ، لكن أمر النظر
إلى البدن عنده ثانوي ، فهو يريد أن يمسه ما يمس
الفقراء من الجوع وشظف العيش حتى يكون على

ذَكَرَ دَائِمَ لَهُمْ ، وَقَدْ تَأَسَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ،
حَيْثِ اقْتَصَرُوا عَلَى الطَّعَامِ الضَّرُورِيِّ وَأَنْفَقُوا عَلَى
إِخْوَانِهِمُ الْقَادِمِينَ .

٣ - مِثْلَ مَنْ تَوَاضَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرُ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ ، حَيْثُ يَحْمِلُ الْمُؤُونَةَ عَلَى ظَهْرِهِ لِيُوصِلَهَا إِلَى
الْأَعْرَابِ ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِذَلِكَ بَلْ يَتَوَلَّى الطَّبْخَ لَهُمْ
حَتَّى يَشْبَعُوا ، ثُمَّ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ بِنَفْسِهِ
يَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهُمْ ، فَمَا الَّذِي دَفَعَ أَعْلَى حَاكِمٍ فِي الْأَرْضِ
أَنْذَاكَ إِلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ حِمْلًا لِلْمَتَاعِ طَبَاخًا
لِلنَّاسِ !؟

إِنَّهُ الْإِيْمَانُ الْقَوِيُّ ، وَالْعَقْلُ الْكَبِيرُ ، حَيْثُ كَانَ
يَشْعُرُ بِمَسْئُولِيَّتِهِ عَنِ الْأُمَّةِ وَيَخْشَى أَنْ لَا تُؤَدَّى كَمَا

يريد إذا وكل غيره بذلك .

٤ - أمثلة من خشية الله تعالى ، حيث كان عمر يقول : اللهم لاتجعل هلاك أمة محمد على يدي ، وحيث يتساءل عن سبب البلاء الذي نزل بالمسلمين ، فيخشى أن يكون عقوبة على تقصير منه أو من المسلمين ، وهذا من العلم الراسخ بأسباب المصائب التي تصيب الأمم ، وقد أمر المسلمين بدعاء الله تعالى أن يصلح قلوبهم لتنزل رحمته بهم فيرفع عنهم البلاء ، وقد نفع الله تعالى المسلمين بعلم عمر والصحابة معه رضي الله عنهم ودعائهم لله تعالى بعد صلاح قلوبهم وأعمالهم ، فارتفع عنهم البلاء .

وحيث يكون في الأمة علماء راسخون ربانيون
فإنهم يذكرون الناس بأن من أهم أسباب المصائب
وقوع بعض أفراد الأمة بالمعاصي ، كما جاء في قول الله
تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ
وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، وإذا عرفت
أسباب المصائب فإن انكشاف البلاء بها يكون
بمعالجة أسبابها ، وذلك بالاستقامة على طاعة الله
تعالى واجتناب معاصيه ، وشدة اللجوء إليه ودعائه
ليشكف البلاء عن الأمة .

٥ - في قول عمر : أيها الناس أنشدكم الله هل
تعلمون مني أمراً غيرهُ خير منه ؟ قالوا: اللهم لا .. في
هذا شهادة عليا في العدل تصدر من قوم لا يعرفون

النفاق ولا المداهنة ، وإنما لأعلى مثال لعاجل بشرى
المؤمن وذلك بثناء الصالحين وتزكيتهم .

٦ - الإشادة بموقف أبي عبيدة بن الجراح
الزاهد حيث رفض قبول المال الذي أعطاه إياه
الخليفة عمر مقابل عمله في الدولة ولم يقبل إلا بعد
الإلحاح والاستشهاد بموقف النبي ﷺ مع عمر
المشابه ، وهذا نموذج فريد للعناصر الزكية من البشر
التي ارتفعت عن ضغوط المطالب الدنيوية، وتجردت
للعمل الأخروي .

موقف لكعب بن سور الأسي رضي الله عنه

ذكر أبو الحسن الموردي من رواية الزبير بن بكار عن إبراهيم الحرمي بن محمد بن معن الغفاري أن امرأة أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت : يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل وأنا أكره أن أشكوه وهو يعمل بطاعة الله ، فقال لها : نِعَمَ الزوج زوجك ، فجعلت تكرر عليه القول وهو يكرر عليها الجواب ، فقال له كعب بن سور الأسي : يا أمير المؤمنين هذه امرأة تشكو زوجها في مبادئه إياها في فراشه ، فقال له عمر رضي الله عنه كما فهمت كلامها فاقض بينهما ، فقال كعب : عليّ بزوجه فأتي به ، فقال : إن امرأتك تشكوك فقال : أفني طعام أو

شراب؟ قال : لا في واحد منهما ، فقالت المرأة :
يا أيها القاضي الحكيم رَشِدُهُ
ألهى خليلي عن فراشي مسجده
زهَّده في مضجعي تعبده
نهاره وليله ما يرقده
فلستُ في أمر النساء أحمده
فاقض القضا يا كعب لا تُردده
فقال الزوج :

زهَّديني في فرشها وفي الحَجَلْ
أني امرؤٌ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطُّولُ
وفي كتاب الله تخويفٌ جَلَلُ

فقال كعب :

إن لها حقاً عليك يارجل

نصيبها في أربع لمن عَقَل

فأعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال له : إن الله قد أحل لك من النساء مثني

وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تعبد فيهن

ربك ولها يوم وليلة ، فقال عمر رضي الله عنه لكعب:

والله ما أدري من أي أمريك أعجب أمن فهمك

أمرهما ؟ أم من حكمك بينهما ؟ إذهب فقد وليتك

القضاء بالبصرة^(١) .

ففي هذا الخبر فراسة جيدة من كعب بن سور

(١) الأحكام السلطانية / ١١٥-١١٦ .

الأسدي رضي الله عنه ونباهة عالية ، حيث إن المرأة
قد عرضت مشكلتها بأسلوب الكناية ، وذلك من
اللباقة وحسن الأدب ، ففهم مرادها لأن تلك الأمور
التي ذكرتها مما يُمدح بها الرجال لا مما يعابون بها ،
وقضى لها بقضاء عادل بتكليف من أمير المؤمنين .
وعمر رضي الله عنه مشهور بالفراصة والنباهة ،
وقد تقدم لنا أمثلة على ذلك ، ولكن ربما كان فكره
مشغولا بشيء من الأمور العامة والمرأة تكلمه .
ولقد كان متجردا للحق بريئا من حظ النفس
حينما أثنى على كعب بن سور وولاه القضاء في تلك
القضية .
وفي هذا الخبر مثل من الرقي الأخلاقي الذي

بلغت إليه الأمة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين الذين اقتدوا برسول الله ﷺ؛ فقد أبدى رأيه كعب بن سور - وهو الشاب حديث السن - أمام أمير المؤمنين عمر ولم يخش أن يتخذ منه موقفا شديدا بسبب تدخله في تلك القضية التي فهم أبعادها وخفيت على عمر، ولو كان عمر من الأنايين الذين يعملون لبناء أمجادهم الخاصة لما اجتراً الشاب كعب بن سور على أن يذكر رأيه في تلك القضية، ولكنه كان يدرك أن عمر سيسره وجود المتفوقين فكريا في أمته، وسيسره وجود من يحل مشكلة تلك المرأة.

ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه موقفا كل التوفيق لما أثنى على كعب في فهم قضية تلك

المرأة؛ وأمره بأن يقضي بينها وبين زوجها ، ولما وفق
كعب في القضاء بينهما أثنى عليه عمر ، واغتنم وجود
ذلك الشاب المتفوق فكريا فولاه قضاء البصرة .
إن هذا السلوك العالي من أمير المؤمنين عمر يندر
وجود مثله في التاريخ ، ولقد كان لتخلقه العظيم
بخلق الإيثار ؛ وبراءته التامة من الأنانية والأثرة ؛
وبعد نظره في سياسة أمور الأمة .. كان ذلك دافعاً
لبروز عدد كبير من أبناء الأمة المتميزين في مختلف
المجالات الاجتماعية والسياسية ، أو ليس هو الذي
يقول : أتمنى ملء هذه الغرفة رجالاً كأبي عبيدة !

من مواقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه

من ذلك ما روي عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يرده فقال دهقانهم^(١): إن فعلتم ما أمركم لم يردّه علينا، قالوا: مُرْنَا ، قال : تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر ، فأقول إن المغيرة اختان هذا فدفعه إليّ قال : فجمعوا له مائة ألف ، وأتى عمر ، فقال ذلك ، فدعا المغيرة فسأله ، قال: كذب أصلحك الله إنما كانت مئتي ألف، قال: فما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة، فقال عمر للعلاج: ماتقول ؟ قال : لا والله لأصدقنك ما دفع إليّ

(١) يعني رئيسهم والمقدم فيهم، والبحرين قديماً كانت تطلق على شرق جزيرة العرب .

قليلا ولا كثيرا ، فقال عمر للمغيرة : ما أردت إلى هذا ؟ قال: الخبيث كذب علي فأحبت أن أخزيه ^(١) .

فهذا مثل على سرعة البديهة ، وحسن التخلص من المآزق ، فقد أراد أهل البحرين أن يوقعوا المغيرة في مشكلة مالية ليتخلصوا منه، وهم يعلمون صرامة عمر وشدته في هذا الجانب، ولكن المغيرة كان أدهى منهم، مع أنهم قد خططوا لهذا الأمر وكان هو على البديهة .

وقد صدق في وصفه قبيصة بن جابر حينما قال :
صحبت المغيرة بن شعبة ، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يُخْرَج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها كلها ^(٢) .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦/٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٠/٣ .

من مواقف معاوية رضي الله عنه

من أخبار معاوية رضي الله عنه في الدهاء وحسن البديهة، أنه لما قدم أمير المؤمنين عمر الشام تلقاه معاوية في موكب عظيم وهيئة، فلما دنا منه قال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم، قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك، قال: نعم، قال: ولم تفعل ذلك؟ قال: نحن بأرض جواسيس العدو بها كثير فيجب أن نُظهر لهم من عز السلطان ما يرهبهم، فإذا نهيتني انتهيت، قال: يا معاوية، ما سألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب

الضَّرس^(١) ، لئن كان ماقلت حقا ، إنه لرأي أريب ،
وإن كان باطلا فإنه لخدعة أديب ، قال : فمرني ، قال :
لا آمرك ولا أنهاك ، فقيل : يا أمير المؤمنين ما أحسن
ماصدر عما أوردته ، قال : لحسن مصادره وموارده
جشمناه ما جشمناه^(٢) .

وهكذا كان معاوية بمجاروته لدولة عظمى
آنذاك وهي دولة الروم ولكون جواسيسها قد
خالطوا مجتمع المسلمين في الشام ، فإنه رأى في مظاهر

(١) الرواجب هي مفاصل أصول الأصابع ، والضَّرس الغضبان
والصعب الخلق ، ويفهم من السياق أن المقصود أنه يتركه في
حال من الغضب المبني على الحيرة في أمره .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/١٣٣ ، وقوله " جشمناه " أي حملناه
مسؤولية كبيرة .

الأبهة والعظمة ما يخدم المسلمين في حربهم مع الأعداء حيث ينقل أولئك الجواسيس صورة عن المسلمين ترهب أعداءهم ، ولذلك لم يُصِرَّ عمر على إنكاره عليه بل ترك الأمر لاختياره نظرًا لخبرته بأعدائه المجاورين له .

ويفهم من هذا الخبر وأخبار أخرى أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كان معجبا بمعاوية رضي الله عنه ، وأهم شيء كان يقوم به معاوية ويرى عمر أن أحدا لا يسدُّ فيه مَسدَّهُ أنه كان درعا واقيا للأمة الإسلامية من دولة الروم التي كانت ماتزال قوية، وكان حكامها ينتظرون أي فرصة ضعف في دولة الإسلام ليغيروا عليها، فكان اتقاء شرهم يحتاج إلى

أن يكون الوالي الذي يجاورهم داهية يقظا ذا رأي
سديد وسياسة دقيقة وطاعة في جنده، كان عمر ينكر
على معاوية بعض الأمور التي تخالف سياسته
كالظهور بشيء من الأبهة والمظاهر السلطانية ، ولكنه
كان يغض الطرف عن ذلك لعظم غناؤه في دولة
الإسلام وعدم وجود من يجمع الصفات التي حازها
مع الظهور بمظهر الزهد والتواضع .

ومما يدل على أنه كان يسد بابا يشكّل خطراً على
دولة الإسلام ما كان من ملك الروم حينما أراد غزو
بلاد المسلمين في عهد علي بن أبي طالب رضي الله
عنه، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير : وطمع في
معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأذله وقهر

جنده ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية
بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة
وطمع فيه ، فكتب معاوية إليه : والله لئن لم تنته
وترجع إلى بلادك يالعين لأصطلحنَّ أنا وابن عمي
عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقن عليك
الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم
وانكفَّ ، وبعث يطلب الهدنة ^(١) .

ومن أخبار معاوية رضي الله عنه في الحكمة
وحسن التصرف ماأخرجه الخطيب البغدادي من
خبر عبد الله بن عمارة بن القداح . قال: كان ثابت بن

(١) البداية والنهاية ١١٩/٨ ، وقوله « دحاهم » أي رمى بهم
داخل بلادهم .

قيس بن الخطيم، شديد النفس، وكان له بلاء مع علي
ابن أبي طالب، واستعمله علي بن أبي طالب على
المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة
الكوفة، وكان معاوية يتقي مكانه. انصرف ثابت بن
قيس إلى منزله فيجد الأنصار مجتمعين في مسجد بني
ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية في حقوقهم أول ما
استخلف، وذاك أنه حبسهم ستين أو ثلاثاً لم يعطهم
شيئاً . فقال: ما هذا ؟ فقالوا : نريد أن نكتب إلى
معاوية . فقال: ماتصنعون أن يكتب إليه جماعة ؟!
يكتب إليه رجل منا فإن كانت كائنة برجل منكم فهو
خير من أن تقع بكم جميعاً وتقع أسماؤكم عنده.

فقالوا : فمن ذلك الذي يبذل نفسه لنا؟ قال:
أنا . قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء
منها : نصره النبي ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست
حقوقنا، واعتديت علينا وظلمتنا، ومالنا إليك ذنب
إلا نصرتنا للنبي ﷺ ، فلما قدم كتابه على معاوية دفعه
إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأي، فقال: تبعث
فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم،
فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به ههنا وتقفه لشيعتك
ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه . فقال: هل
عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت
كتابك، وما ذكرت من النبي ﷺ ، وقد علمت أنها
كانت ضجرة لشغلي وماكنت فيه من الفتنة التي

شهرت فيها نفسك، فأنظرنى ثلاثاً، فقدم كتابه على
ثابت فقرأه على قومه، وصبَّحهم العطاء في اليوم
الرابع^(١).

وبعد فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين
معاوية رضي الله عنه في الحكمة والسياسة ، فهو بعد
أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه
رأيهم ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف
والجبروت ، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضي
الله عنهم ، ولم يؤاخذ ثابت بن قيس رضي الله عنه
على شدة اللهجة في كتابه إليه ، وهو بهذا التصرف

(١) تاريخ بغداد ١/١٧٦ ، وثابت بن قيس بن الخطيم خزرجي
أنصاري رضي الله عنه .

الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئاً بل كسب
ولاء الأنصار له وولاء غيرهم ممن يطلع على خبره
معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش
بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم
طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم في الإسلام.
وفي هذا الخبر موقف يذكر لثابت بن قيس في
الجرأة والتضحية، حيث فدى قومه بنفسه فيما إذا كان
هناك ضرر عليهم، وهو وإن كان أمراً بعيداً من أمير
المؤمنين معاوية رضي الله عنه فإنه أمر محتمل الوقوع،
ومواقف الجرأة والفداء تدل على اتصاف صاحبها
بالإيثار وتجرده من الأنانية، وتلك من أخلاق الكُمَّل
من الرجال .

ومن أخبار معاوية رضي الله عنه أيضا في
الحكمة والمقدرة على الاقناع ما أخرجه الخطيب
البغدادي من خبر عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة
أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبي سفيان فقضى
حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك
على الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فيما
قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنّ بذات نفسك،
والذي تعيب عليّ. قال المسور: فلم أترك شيئاً أعيبه
عليه إلا بيته له . قال معاوية : لا بريء من
الذنب، فهل تعدُّ يامسور مالي من الاصلاح في أمر
العامة، فإن الحسنه بعشر أمثالها؟ أم تعدُّ الذنوب
وتترك الحسنات. قال المسور: لا والله مانذكر إلا

ماترى من هذه الذنوب . قال معاوية: فَإِنَّا نَعْتَرِفُ لِلَّهِ
بِكُلِّ ذَنْبٍ أَذْنَبْنَاهُ فَهَلْ لَكَ يَا مَسُورُ ذُنُوبٌ فِي خَاصَّتِكَ
تَخْشَى أَنْ تَهْلِكَ إِنْ لَمْ يَغْفِرَهَا اللَّهُ؟ قَالَ مَسُورُ: نَعَمْ!
قَالَ مَعَاوِيَةُ: فَمَا يَجْعَلُكَ أَحَقَّ أَنْ تَرْجُوَ الْمَغْفِرَةَ مِنِّي؟
فَوَاللَّهِ لَمَا أَلِي مِنَ الْإِصْلَاحِ أَكْثَرَ مِمَّا تَلِي وَلَكِنَّ وَاللَّهِ لَا
أُخِيرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ إِلَّا اخْتَرْتُ اللَّهَ
تَعَالَى عَلَى مَا سِوَاهُ، وَأَنَا عَلَى دِينِ يَقْبَلُ اللَّهُ فِيهِ الْعَمَلَ،
وَيَجْزِي فِيهِ بِالْحَسَنَاتِ، وَيَجْزِي فِيهِ بِالذُّنُوبِ، إِلَّا أَنْ
يَعْفُو عَمَّنْ يَشَاءُ، فَأَنَا أَحْتَسِبُ كُلَّ حَسَنَةٍ عَمَلْتُهَا
بِأَضْعَافِهَا، وَأَوَازِي أُمُورًا عَظِيمًا لَا أَحْصِيهَا
وَلَا تَحْصِيهَا، مِنْ عَمَلٍ لِلَّهِ فِي إِقَامَةِ صَلَوَاتِ الْمُسْلِمِينَ،
وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَالْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

تعالى، والأمور التي لست تحصيلها وإن عددتها لك ،
فتفكّر في ذلك . قال المسور: فعرفت أن معاوية قد
خصمني حين ذكر لي ما ذكر .

قال عروة : فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر
معاوية إلا استغفر له ^(١) .

في هذا الخبر مثل جيد في فن الإقناع، ومحاولة
امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد
استطاع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه أن يقنع
المسور بن مخرمة رضي الله عنه بسياسته التي يسير
عليها، وعاد مادحا داعيا له بعدما كان منتقدا مهاجما
له .

(١) تاريخ بغداد ١/٢٠٨-٢٠٩ .

وفي هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان بأن من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه قبل أن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لاتعد أخطاؤه إلى جانبها شيئاً مذكوراً .

من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

من ذلك ما أخرجه عبد بن حميد والنحاس من حديث سعد بن عبيدة: أن ابن عباس كان يقول: لِمَنْ قتل مؤمناً توبة، فجاءه رجل فسأله أَلَمْ يَنْ قتل مؤمناً توبة؟ قال: لا، إلا النار، فلما قام الرجل قال له جلساؤه: ما كنت هكذا تفتينا، كنت تفتينا أن لمن قتل مؤمناً توبة، فما شأن هذا اليوم؟ قال: إني أظنه رجلاً يغضب يريد أن يقتل مؤمناً، فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك^(١).

فابن عباس - لدقة فراسته - قرأ في وجه ذلك الرجل أنه يريد أن يُقَدِّم على جريمة قتل ثم يتوب بعد ذلك، فأجابه بما يُعظِّم في نفسه جانب الخوف من الله تعالى والمصير السيء في الآخرة.

(١) الدر المنثور (٤/٦٠٤).

وجواب عبد الله بن عباس هذا يُعدُّ من الأجوبة الدعوية ، أما جوابه تلاميذه في أن القاتل له توبة فهو من الأجوبة العلمية ، والأجوبة العلمية هي التي يُبيِّن فيها العالم الحكم على المسائل كما جاءت في الشريعة من غير نظر إلى الملابس التي تحيط بقضية من القضايا، بينما الأجوبة الدعوية يُنظر فيها على أنها تعالج قضية واقعة تكتنفها ملابس تستدعي النظر من العالم لإصدار جواب يراعى فيه كونها قضية واقعة مع ما يكتنفها من الملابس .

وابن عباس بهذا الجواب يُعدُّ قدوة حسنة لمن عاصروه أو جاؤوا بعده في التفريق بين الأجوبة العلمية والأجوبة الدعوية .

ومن الذين علمتُ بأنهم سلكوا هذا المسلك الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، فإنه قد ذهب إلى

أهل قرية يقَدِّسون سيِّداً من الأموات ويصرفون له بعض أنواع العبادة ، فسألوه عن معنى « لا إله إلا الله » ، فقال لهم : معناها لا سيِّد إلا الله ، فهذا جواب دعوي تمَّت فيه مراعاة أن السائلين الذين سألوا هذا السؤال يريدون من الشيخ أن يجيبهم بالجواب العلمي الذي يقرره في دروسه وكتبه من أن معنى « لا إله إلا الله » لا لمعبود بحق سوى الله ، ولربما لبَّسوا بعد ذلك على أتباعهم بأنهم لا يعبدون إلا الله ، وأن ما يقومون به تجاه ذلك السيد ليس عبادة له .

فلو أن الشيخ أجابهم بهذا الجواب لم يصل إلى ما وصل إليه من تحذيرهم من عبادة ذلك السيد .

موقف لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن أحسن الفراسة
فراصة عبد الملك بن مروان لما بعث الشعبي إلى ملك
الروم فحسد المسلمين عليه ، فبعث معه ورقة لطيفة إلى
عبد الملك ، فلما قرأها قال : تدري ما فيها؟ قال : لا ،
قال: حسدني بك فأراد أني أقتلك ، فقال الشعبي: لو
رآك يا أمير المؤمنين ما استكثرني ، فبلغ ذلك ملك الروم
فقال: والله ما أخطأ ما كان في نفسي^(١) .

وبهذا فوت أمير المؤمنين عبد الملك على ملك الروم
مراده ، وهكذا يكون الرجال العظماء الذين هم أهل
لقيادة المسلمين وإدارة أمورهم .

(١) الطرق الحكيمة / ٥٤ .

من مواقف القاضي إياس بن معاوية

من المشهورين بالحكمة وسرعة البديهة القاضي إياس بن معاوية رحمه الله تعالى قال الحافظ ابن كثير في ترجمته : وقال: بعضهم: سأل رجل إياسا عن النبيذ فقال : هو حرام، فقال الرجل : فأخبرني عن الماء ، فقال: حلال ، قال: فالكسور، قال: حلال ، قال: فالتمر، قال: حلال ، قال: فما باله إذا اجتمع حرم؟ فقال إياس: أ رأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك؟ قال: لا، قال: فهذه الحفنة من التُّبْنِ؟ قال: لا توجعني ، قال: فهذه الغرفة من الماء؟ قال: لا توجعني شيئا ، قال: أ رأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طينا ثم تركته حتى

استحجر ثم رميتك أيوجعك ؟ قال: إي والله
وتقتلني، قال: فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت ^(١) .
وهذا تشبيهه بليغ من القاضي إياس أقنع به ذلك
الرجل المعترض، وماله لا يقتنع وقد مثل له بشيء
يقتنع به جميع العقلاء وهذا يكون القاضي إياس من
الدعاة الموفقين إلى هداية الناس والتأثير عليهم
بتوفيق الله تعالى ثم بذكائه الخارق وموهبته العالية
وبلاغته الفائقة .

وذكر الحافظ ابن كثير أن رجلاً قال للقاضي
إياس بن معاوية : إن فيك خصالاً لاتعجبني ، فقال:

(١) البداية والنهاية ٣٥٠/٩ ، وقوله « فالكسور» يفهم من
سياق الخبر أنها مواد صغيرة توضع مع النيذ لتحسينه.

ماهي ؟ فقال: تحكم قبل أن تفهم، ولا تجالس كل أحد، وتلبس الثياب الغليظة ، فقال له: أيها أكثر الثلاثة أو الإثنين ؟ قال: الثلاثة ، فقال: ما أسرع ما فهمت وأجبتُ، فقال: أوَ يجهل هذا أحد ؟ فقال: وكذلك ما أحكم أنا به ، وأما عدم مجالستي لكل أحد فلأن أجلس مع من يعرف لي قدرتي أحب إليّ من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدرتي، وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا ^(١) .

فهذا الجواب من القاضي إياس يدل على عقل رصين ودين متين وسرعة بديهة .

(١) البداية والنهاية ٣٥١ / ٩ .

قال الحافظ ابن كثير : قالوا وتحاكم إليه اثنان
فادّعى أحدهما عند الآخر مالا وجحده الآخر، فقال
إياس للمودع : أين أودعته ؟ قال: عند شجرة في
بستان، فقال: انطلق إليها فقف عندها لعلك تتذكر،
وفي رواية أنه قال له: هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتي
بورق منها؟ قال: نعم، قال: فانطلق، وجلس الآخر
فجعل إياس يحكم بين الناس ويلاحظه، ثم استدعاه
فقال له: أوصل صاحبك بعدُ إلى المكان؟ قال: لا بعدُ
أصلحك الله، فقال له: قم ياعدو الله فأدِّ إليه حقه وإلا
جعلتك نكالا، وجاء ذلك فقام معه فدفَع إليه
وديَعته بكمالها^(١).

(١) البداية والنهاية ٣٥١/٩.

وهكذا استخدم القاضي إياس ذكاءه الحاد
وفراسته الدقيقة في كشف المعتدين الظالمين،
والفراصة موهبة عالية يهبها الله تعالى لمن يشاء من
عباده .

وقال الحافظ ابن كثير أيضا : وجاء آخر فقال له :
إني أودعت عند فلان مالا وقد جحدني، فقال له :
اذهب الآن وائتني غدا، وبعث من فوره إلى ذلك
الرجل الجاحد فقال له : إنه قد اجتمع عندنا ههنا
مال فلم نر له أمينا نضعه عنده إلا أنت ، فضعه عندك
في مكان حريز ، فقال له : سمعا وطاعة ، فقال له :
اذهب الآن وائتني غدا، وأصبح ذلك الرجل صاحب
الحق فجاء فقال له : اذهب الآن إليه فقل له : أعطني

حقي وإلا رفعتك إلى القاضي، فقال له ذلك فخاف
أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفع إليه ماله
بكماله، فجاء إلى إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل
من الغد رجاءً أن يودع عنده فانتهره إياس وطرده
وقال له : أنت خائن ^(١) .

ففي هذا الخبر مقدره فائقة من القاضي إياس
على تخلص حقوق المسلمين بعضهم من بعض، وهذا
مثل على ذكائه الحاد وسرعة بديهته .

وللقاضي إياس أخبار أخرى في الذكاء وسرعة
البديهة وقد انتشرت هذه الأخبار حتى أصبح يضرب
به المثل في الذكاء، كما قال أبو تمام يمدح أمير المؤمنين

(١) البداية والنهاية ٣٥١/٩ .

المعتصم :

إقدام عمرو في سماحة حاتم

في حلم أحنف في ذكاء إياس

يعني عمرو بن معد يكرب الزبيدي وحاتم الطائي

والأحنف بن قيس التميمي وإياس بن معاوية.

ومن باب تكملة الخبر فإن أحد جلساء المعتصم

وهو الكندي فيما أذكر قال لأبي تمام: ما زدت على أن

شبّهت الخليفة بأجلاف العرب، فقال المعتصم:

لا تُنكروا ضربي له مَنْ دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

فقال ذلك الرجل عن أبي تمام: هذا الرجل

لا يعيش كثيراً فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل السيف

المهند غمده.

من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن دقيق الفراسة أن المنصور جاءه رجل فأخبره أنه خرج من تجارة فكسب مالا فدفعه إلى امرأته فذكرت أنه سرق من البيت ولم ير نقبا ولا أمارة، فقال المنصور : منذ كم تزوجتها قال: منذ سنة قال : بكرًا أو ثيبا قال: ثيبا قال: فلها ولد من غيرك قال: لا فدعا له المنصور بقارورة طيب يتخذه حادّ الرائحة غريب النوع فدفعها إليه وقال له تطيب من هذا الطيب فإنه يذهب غمك، فلما خرج الرجل من عنده قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم فمن شم منكم رائحة هذا الطيب من أحد

فليات به، وخرج الرجل بالطيب فدفعه إلى امرأته
فلما شمته بعثت منه إلى رجل كانت تحبه وقد كانت
دفعت إليه المال فتطيب منه ومر مجتازاً ببعض أبواب
المدينة فشم الموكل بالباب رائحة طيبة فأتى به
المنصور فسأله: من أين لك هذا الطيب فلجلج في
كلامه فبعث به إلى والي الشرطة فقال: إن أحضر لك
كذا وكذا من المال فخل عنه وإلا فاضربه ألف سوط
فلما جرد للضرب أحضر المال على هيئته، فدعا
المنصور صاحب المال فقال: إن رددت إليك المال
تحكمني في امرأتك قال: نعم قال: هذا مالك وقد
طلقت المرأة منك^(١).

(١) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية / ٥٤ .

فهذا مثل للنباهة الدقيقة والتخطيط المحكم،
وقد كان أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور مشهورًا
بالذكاء الحاد والفطنة اللطيفة، ولقد قام في حل هذه
القضية بدور القضاة مع شغله الكبير بإدارة شؤون
الدولة الإسلامية ، مما يدل على تمتعه بطاقة قوية
ومقدرة فكرية عالية .

من مواقف يحيى بن يحيى الليثي

هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير الليثي المصمودي ، أحد علماء الأندلس الكبار، من قبيلة مصمودة البربرية ويتنسب إلى بني الليث بالولاء .
ذكره ابن خلكان وذكر أنه رحل إلى الإمام مالك ابن أنس في المدينة النبوية وسمع منه الموطأ، وشك في سماعه لأبواب في كتاب الاعتكاف فكان يرويها عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي وكان سمع منه الموطأ قبل رحيله من الأندلس، وهذا يُعدُّ من ورعه ودقة تحريه في نشر العلم .

وذكر أن الإمام مالكا كان يسميه عاقل الأندلس، وسبب ذلك فيما روي أنه كان في مجلس

مالك مع جماعة من أصحابه فقال قائل: قد حضر
الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ولم
يخرج يحيى فقال له مالك: مالك لا تخرج فتراه لأنه
لا يكون بالأندلس؟ فقال: إنما جئت من بلدي لأنظر
إليك وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أجيء لأنظر إلى
الفيل، فأعجب به مالك وسماه عاقل أهل الأندلس^(١).
وهكذا حاز يحيى بن يحيى على هذا اللقب
الكريم من كبير علماء الحجاز في عصره لإكباره للعلم
والعلماء وعدم اشتغاله عن ذلك بشيء من أمور
الدنيا.

ومن مواقفه العالية ما ذكره ابن خلكان من خبر

(١) وفيات الأعيان ٦/١٤٤.

أحمد بن أبي الفياض قال: كتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي المعروف بالربضي صاحب الأندلس إلى الفقهاء يستدعيهم إليه، فأتوا إلى القصر، وكان عبد الرحمن المذكور قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حبا شديداً فعبث بها ، ولم يملك نفسه أن وقع عليها، ثم ندم ندمًا شديداً، فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته، فقال يحيى بن يحيى : تكفر ذلك بصوم شهرين ، فلما بدر يحيى بهذه الفتيا سكت بقية الفقهاء حتى خرجوا من عنده ، فقال بعضهم لبعض وقالوا ليحيى: مالك لم تفته بمذهب مالك فعنده أنه مخير بين العتق والطعام والصيام ؟ فقال : لو فتحت له هذا الباب سهل عليه أن يطاء كل يوم ويعتق

رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود^(١) .
فهذه نباهة من هذا العالم الجليل، حيث تنبه
لملاحظة مقاصد التشريع ، فإن من مقاصد شرعية
الكفارات أن تكون روادع تمنع من الوقوع في
المعاصي، وحيث إن العتق والإطعام سهلان ميسران
للأغنياء فإن هذا العالم قد قصر ذلك الأمير في فتواه
على الصيام لمشقتة عليه، فبه وحده - والحال هذه-
تحصل مقاصد التشريع، وهذا يُعدُّ من الفقه في
الدين، فإن الفقيه لا ينبغي له أن يقتصر نظره على
ظواهر النصوص، وإنما يقتضي منه الفقه أن ينظر إلى
مقاصد التشريع .

(١) وفيات الأعيان ١٤٥/٦ .

وفي سكوت أولئك الفقهاء حينما تكلم يحيى بن
يحيى مع إنكارهم فتواه حسن أدب منهم، وتقييد
بآداب العلم المرعية، من احترام كبار أهل العلم
وعدم إظهار الاختلاف أمام غيرهم، لأن ذلك يوهن
من أحكامهم وفتاويهم .

وكان رحمه الله متواضعاً في خدمة شيوخه، قال
ابن خلكان: وحكي عنه أنه قال: أخذت ركاب الليث
ابن سعد، فأراد غلامه أن يمنعني فقال : دعه ، ثم
قال لي الليث : خدمك أهل العلم، فلم تزل بي الأيام
حتى رأيت ذلك ^(١) .

(١) وفيات الأعيان ١٤٦/٦ ، والركاب هو ما يتوصل به لركوب
الدابة ، والمعنى أنه أمسك به ليركب .

موقف لأبي بكر الباقلاني

ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمته قال: ذكر الخطيب وغيره أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم ، فلما انتهى إليه إذا هو لا يدخل عليه أحد إلا من باب قصير كهيئة الراكع، ففهم الباقلاني أن مراده أن ينحني الداخل عليه كهيئة الراكع لله عز وجل، فدار بقفاه إلى الملك ودخل الباب بظهره يمشي إليه القهقري، فلما وصل إليه انفتل فسلم عليه ، فعرف الملك ذكاه ومكانه من العلم والفهم فعظمه . قال : ويقال إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالأرغل، ليستفز عقله بها ، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن يظهر منه حركة

ناقصة بحضرة الملك ، فجعل لا يألو [أي لا يقصر]
جهداً أن جرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير ،
فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من
النقص والخفة ، فعجب الملك من ذلك، ثم إن الملك
استكشف الأمر فإذا هو قد جرح نفسه بما أشغله عن
الطرب، فتحقق الملك وفور همته وعلو عزيمته ، فإن
هذه الآلة لا يسمعها أحد إلا طرب شاء أم أبى .

قال : وقد سأله أحد الأساقفة بحضرة ملكهم
فقال: ما فعلت زوجة نبيكم ؟ وما كان من أمرها بما
رُميت به من الإفك ؟ فقال الباقلاني مجيباً له على
البديهة : هما امرأتان ذُكرتا بسوء : مريم وعائشة ،
فبرأهما الله عز وجل ، وكانت عائشة ذات زوج ولم

تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج - يعني
أن عائشة أولى بالبراءة من مريم - وكلاهما بريئة مما
قيل فيها ، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى
هذه فهو إلى تلك أسرع، وهما بحمد الله منزهتان
مبرأتان من السماء بوحي الله عز وجل ، عليهما
السلام^(١) .

(١) البداية والنهاية ١١/٣٧٤ .

من مواقف الأمير أحمد بن طولون^(١)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن عجيب
الفراسة ما ذكر عن أحمد بن طولون أنه بينما هو في
مجلس له يتنزّه فيه إذ رأى سائلاً في ثوب خلق فوضع
دجاجة على رغيف وحلوى وأمر بعض الغلمان
فدفعه إليه، فلما وقع في يده لم يهش له ولم يعبا به فقال
للغلام: جئني به، فلما وقف قدامه استنطقه فأحسن
الجواب ولم يضطرب من هيئته فقال: هات الكتب
التي معك واصدقني، من بعثك؟ فقد صح عندي
أنك صاحب خبر، وأحضر السياط فاعترف فقال

(١) هو أبو العباس أحمد بن طولون أمير الشام ثم مصر في عهد
العباسيين توفي في عام سبعين ومائتين .

بعض جلسائه: هذا والله السحر قال: ما هو بسحر ولكن فراسة صادقة، رأيت سوء حاله فوجهت بطعام يشره بأكله الشبعان فما هش له ولا مد يده إليه، فأحضرته فتلقاني بقوة جأش، فلما رأيت وثاقه حاله وقوة جأشه علمت أنه صاحب خبر فكان كذلك .

قال: ورأى يوماً حمالاً يحمل صنّاً^(١) وهو يضطرب تحته فقال: لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال وأنا أرى عنقه بارزة وما أرى هذا الأمر إلا من خوف، فأمر بحط الصن فإذا فيه جارية مقتولة وقد قطعت فقال: اصدقني عن حالها، فقال: أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير

(١) الصن كما جاء في القاموس شبه السلة المطبقة يجعل فيها الخبز .

وأمروني بحمل هذه المقتولة فضربه وقتل الأربعة .
قال: وكان يتفكر ويطوف يسمع قراءة الأئمة
فدعا ثقتة وقال: خذ هذه الدنانير وأعطاها إمام
مسجد كذا فإنه فقير مشغول القلب، ففعل وجلس
معه وبأسطه فوجد زوجته قد ضربها الطلق وليس
معه ما يحتاج إليه، فقال: صدق، عرف شغل قلبه في
كثرة غلظه في القراءة^(١) .

فهذه ثلاثة مواقف في الفراسة للأمير أبي العباس
أحمد بن طولون رحمه الله تعالى، وهي تدل على مهارة
فائقة في إدراك حقائق الأمور من أماراتها وأطرافها .

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٥٨ - ٥٩ .

والفراسة تجتمع في تكوينها أمور منها : أولاً
توفيق الله تعالى، وذلك مبني على استقامة الإنسان
وحبه للعدل والإصلاح .

ثانياً: موهبة ذاتية يهبها الله جل وعلا للإنسان كما
يهبه الذكاء وقوة الحافظة .

ثالثاً : اهتمام دائم وتفكير متواصل بالقضايا
التي يتوجه الإنسان إليها، ولا شك أن من أعمل
فكره في أمر من الأمور طويلاً سيصل إلى نتائج
لا يصل إليها خالي الذهن من ذلك الأمر .

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد^(١)

قال الحافظ الذهبي : قال أبو علي المحسن التنوخي : بلغني عن المعتضد أنه كان جالسا في بيت يبنى له، فرأى فيهم أسود منكر الخلقة يصعد السلام درجتين درجتين ويحمل ضعف ما يحمله غيره، فأنكر ذلك وطلبه، وسأله عن سبب ذلك فتلجلج، فكلمه ابن حمدون فيه وقال: من هذا حتى صرفت فكرك إليه؟ قال: قد وقع في خَلدي أمر ما أحسبه باطلا، ثم أمر به فُضرب مئة ، وتهده بالقتل، ودعا بالنُّطع والسيف، فقال: الأمان أنا أعمل في أتون الأجر،

(١) هو أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن محمد المعتضد بالله العباسي توفي عام تسعة وثمانين ومائتين .

فدخل من شهور رجل في وسطه هميان^(١) ، فأخرج
دنانير، فوثبت عليه وسددت فاه وكتفته وألقيته في
الأتون، والذهب معي يقوى به قلبي، فاستحضرها ،
فإذا على الهميان اسم صاحبه، فنودي في البلد،
فجاءت امرأة فقالت: هو زوجي ولي منه طفل، فسلم
الذهب إليها وقتله^(٢) .

فهذا مثل عجيب في الفراسة ، فقد قرأ المعتضد
في وجه ذلك الرجل أن له شأنًا ، وأنه قد ارتكب
جريمة، فهو حينما رأى المعتضد أدركه الخوف لما شاع
من قوة المعتضد وبطشه بالمجرمين، فصار يسير بغير

(١) الهميان حزام يشد في الوسط توضع به النقود .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣ / ٤٦٥ - ٤٦٦ .

اتزان، ويعمل بسرعة غير معتادة، فلنت نظر المعتضد.
وهذه الفراسة التي تميز بها المعتضد عن حوله
قد وفقه الله تعالى إليها لما كان يتصف به من العدل
والحرص الشديد على الأخذ على أيدي الظالمين ، إلى
جانب أن الإنسان إذا فكر في شيء تفكيرًا عميقًا فإنه
يصل إلى اكتشاف متعلقات هذا الشيء إلى ما لا يصل
إليه غيره، ولما كان المعتضد مستغرق الفكر في معرفة
المجرمين وإقرار العدل فإنه يكون عنده من الفراسة
في الرجال ما لا يكون عند خالي الذهن من هذا الأمر.
ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى: أنه
رُفِعَ إليه أن صيادًا ألقى شبكته في دجلة فوق فيها
جراب فيه كف مخضوبة بحناء وأحضر بين يديه فهاله

ذلك وأمر الصياد أن يعاود طرح الشبكة هنالك،
ففعل فأخرج جراباً آخر فيه رجل فاغتم المعتضد،
وقال معي في البلد من يفعل هذا ولا أعرفه، ثم
أحضر ثقة له وأعطاه الجراب وقال: طف به على كل
من يعمل الجُربَ ببغداد فإن عرفه أحد منهم فأسأله
عمن باعه منه فإذا ذلك عليه فاسأل المشتري عن
ذلك ونقّر عن خبره، فغاب الرجل ثلاثة أيام ثم عاد
فقال: لازلت أسأل عن خبره حتى انتهى إلى فلان
الهاشمي اشتراه مع عشرة جرب وشكى البائع شره
وفساده ومن جملة ما قال أنه كان يعشق فلانة المغنية،
وأنه غيبها فلا يُعرف لها خبر وادعى أنها هربت
والجيران يقولون قتلها، فبعث المعتضد من كبس

منزل الهاشمي وأحضره وأحضر اليد والرجل وأراه
إياهما فلما رآهما انتقع لونه وأيقن الهلاك واعترف فأمر
المعتضد بدفع ثمن الجارية إلى مولاها وحبس
الهاشمي حتى مات في الحبس^(١).

في هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين المعتضد
بالله بأمور رعيته، حيث انزعج من تلك الجريمة التي
اطلع عليها، وأبدى اهتمامه الشديد في الأمر وأعمل
فكره من أجل الوصول إلى مصدر الجريمة، ولما وقع
في يده خيط من خيوطها وهو الجراب بدأ البحث عن
صاحب الجريمة، ومن طريق صانعي الجُرب توصل
إلى الرجل المتهم، فأجرى حكم العدالة عليه .

(١) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية / ٥٦ .

وهذه نباهة قوية وفراسة جيدة حيث توصل
بمعرفة طرف من القضية إلى إدراك حقيقتها .

موقف للقاضي أبي حازم^(١)

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : قال مكرم بن أحمد كنت في مجلس القاضي أبي حازم فتقدم رجل شيخ ومعه غلام حدث فادعى الشيخ عليه ألف دينار دينا فقال: ماتقول؟ قال: نعم، فقال القاضي للشيخ: ماتشاء؟ قال: حبسه قال: لا، فقال الشيخ: إن رأى القاضي أن يحبسه فهو أرجى لحصول مالي، فتفرس أبو حازم فيهما ساعة ثم قال: تلازما حتى أنظر في أمركما في مجلس آخر فقلت له: لم أخّرت حبسه؟ فقال: ويحك إني أعرف في أكثر الأحوال في وجوه

(١) هو أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز تولى القضاء في عهد المعتضد بالله العباسي وابنه المكتفي .

الخصوم وجه المحق من المبطل وقد صارت لي بذلك
دراية لا تكاد تخفيء وقد وقع لي أن سماحة هذا
بالإقرار عين كذبه ولعله ينكشف لي من أمرهما
مأكون معه على بصيرة، أما رأيت قلة تعاصيها في
المنكرة وقلة اختلافها وسكون طباعهما مع عظم
المال، وما جرت عادة الأحداث بفرط التورع حتى
يقر مثل هذا طوعا عجلا منشرح الصدر على هذا
المال، قال: فنحن كذلك نتحدث إذ أتى الأذن
يستأذن على القاضي لبعض التجار فأذن له فلما دخل
قال: أصلح الله القاضي إني بليت بولد لي حدث
يتلف كل مال يظفر به من مالي في القيان^(١) عند فلان

(١) أي الإماء المملوكات .

فإذا منعتة احتال بحيل تضطرنني إلى التزام العُرم عنه ،
وقد نصب اليوم صاحب القيان يطالب بألف دينار
حالا وبلغني أنه تقدم إلى القاضي ليقر له فيسجنه
وأقع مع أمه فيما ينكد عيشنا إلى أن أقضي عنه، فلما
سمعت بذلك بادرت إلى القاضي لأشرح له أمره،
فتبسم القاضي وقال له: كيف رأيت؟ فقلت: هذا من
فضل الله على القاضي فقال عليّ بالغلام والشيخ
فأرهب أبو حازم الشيخ ووعظ الغلام فأقر فأخذ
الرجل ابنه وانصرفاً^(١) .

فهذه فراسة جيدة من القاضي أبي حازم من
ناحية قراءة ما في الوجوه من تأثيرات وانفعالات، فلم

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ٤٠ .

يتسرع في الحكم بالظاهر المبني على إقرار المدعى عليه
لينكشف له من أمور الباطن ما يهديه إلى الوصول إلى
الحق، وليس القاضي ملزماً بالحكم الفوري، فإذا كان
في شك من القضية فإن في تأجيلها فسحة للتأمل
والمقارنة، أو حصول أمر خارجي يكشف الوضع
الحقيقي كما هو الحال في هذه القضية .

موقف لصاحب شرطة أمير المؤمنين المكتفي بالله^(١)

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن اللصوص أخذوا في زمن المكتفي بالله مالا عظيما فألزم المكتفي صاحب الشرطة بإخراج اللصوص أو غرامة المال، فكان يركب وحده ويطوف ليلا ونهارا إلى أن اجتاز يوما في زقاق خال في بعض أطراف البلد فدخله مُنْكَرًا ووجده لا ينفذ، فرأى على بعض أبوابه شوك سمك كثير وعظام الصلب ، فقال لشخص : كم يقوم التقدير ثمن هذا السمك الذي هذا عظامه ؟ قال: دينار ، قال : أهل الزقاق لا تحتمل أحوالهم

(١) هو أمير المؤمنين علي بن أحمد العباسي وأبوه المعتضد بالله ولقبه المكتفي بالله توفي في عام خمسة وتسعين ومائتين.

مشتري مثل هذا لأنه زقاق يئن الاختلال إلى جانب
الصحراء لا ينزله من معه شيء يخاف عليه أو له مال
ينفق منه هذه النفقة ، وماهي إلا بلية ينبغي أن
يُكشف عنها فاستبعد الرجل هذا وقال : هذا فكر
بعيد فقال : اطلبوا لي امرأة من الدرب أكلمها فدق
بابا غير الذي عليه الشوك واستسقى ماء فخرجت
عجوز ضعيفة فما زال يطلب شربة بعد شربة وهي
تسقيه وهو في خلال ذلك يسأل عن الدرب وأهله
وهي تخبره غير عارفة بعواقب ذلك ، إلى أن قال لها :
وهذه الدار من يسكنها وأوماً إلى التي عليها عظام
السماك؟ فقالت: فيها خمسة شبان أعفار^(١) كأنهم تجار

(١) أي بيض الوجوه .

وقد نزلوا منذ شهر لانراهم نهارًا إلا في كل مدة طويلة،
ونرى الواحد منهم يخرج في الحاجة ويعود سريعًا وهم
في طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون
بالشطرنج والنرد ولهم صبي يخدمهم، فإذا كان الليل
صدروا إلى دار لهم بالكرخ ويدعون الصبي في الدار
يحفظها، فإذا كان سحرا جاؤوا ونحن نيام لانشعر بهم
فقال للرجل: هذه صفة لصوص أم لا؟ قال: بلى، فأنفذ
في الحال فاستدعى عشرة من الشرط وأدخلهم إلى
أسطحة الجيران ودق هو الباب فجاء الصبي ففتح
فدخل الشرط معه فما فاته من القوم أحد فكانوا هم
أصحاب الجناية بعينهم^(١).

(١) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية / ٥٩ - ٦٠ .

فهذا الخبر فيه موقفان : الأول موقف حزم وقوة
وعدالة من أمير المؤمنين المكتفي بالله، حيث استعظم
تلك السرقة الكبيرة فجعل رئيس الشرطة بين
خيارين : العثور على اللصوص ، أو غرامة ذلك المال
المسروق، فكان هذا الحزم الشديد دافعا لرئيس
الشرطة كي يبذل قصارى جهده في العثور على
اللصوص .

والثاني: موقف لرئيس الشرطة حيث بذل جهده
وأعمل فكره في البحث عن اللصوص إلى أن اهتدى
إليهم بتوفيق الله تعالى ثم بدهائه ونباهته وحسن
فراسته.

موقف للوزير محمد بن السَّلم

من أخبار عبد الرحمن بن الحكم^(١) أنه تكررت الشكوى عليه من ولاة المدينة واحداً بعد واحد، فأقسم ألاَّ يُؤلي المدينة رجلاً من أهل قرطبة فكشف عن من يستحق هذا من سُكَّان الكُور من مواليه فأشير له إلى محمد بن السلم، ووُصفَ عنده بالحجِّ^(٢) وحُسن العقل والتواضع فبعث فيه وولاه المدينة، فلما ركب أوَّل يوم وُليَّ فيه المدينة إلى القصر، قيل له قتل بالقصابين في شيرة^(٣) فقال نُؤتى به، فلما صار بين يديه أمر بانزال القتيل في الرصيف لعله يمرُّ

(١) هو أحد أمراء الأندلس .

(٢) يعني بقوة الحجَّة .

(٣) الشيرة كالقفة وعاء توضع به الأشياء .

به أحدٌ ممن يعرفه، وأمر بتقديم الشيرة إليه فنظر إلى شيرة جديدة فقال عليٌّ بالحصَّارين كلهم، تجارهم وعمَّال الأيدي. فلما أُتي بهم، قدَّم نفسه إلى وجوههم فقال لهم: «عمل الشيرات والقفاف مشتبه أو يعرف بعضهم عمل بعض». فقالوا له: «بل يعرف بعضنا أعمال بعض، ونعرف أعمال أهل الكور من أعمالنا بقرطبة» فأمر بإبراز الشيرة إليهم فقالوا: «هذه من عمل فلان وهو في الجماعة واقف». فأمر بتقديمه فقدم إليه فقال: نعم هذه الشيرة اشتراها مني بالأمس فتى عليه هيئة خدمة السلطان ووصفه كذا، فقال الشرطُ والمشترون: هذه صفة فلان الأخرس الساكن برُصافة، فنهض إليه وفُتِش عليه فوجدت ثيابُ القتيل عنده فلما بلغ الخبر عبدالرحمن أمر بتوليته

الوزارة مع المدينة، فلما دخل البيت صاروا له كلهم
تبعاً في الرأي^(١).

فهذا الوزير كان حاذقاً في معرفة صاحب الجريمة من
متعلقاتها ، فكان الخيط الذي عرف به القاتل ذلك الوعاء
الذي وُضع فيه القتل، فقاده ذلك إلى معرفة صانع
الوعاء، ثم إلى معرفة من اشتراه حتى انكشفت الجريمة.
وفي الخبر موقف يذكر للأمير عبد الرحمن بن
الحكم في حسن اختيار الولاية ، وتقدير أهل النبوغ
والتفوق، فحينما نجح هذا الوالي في كشف تلك
الجريمة الخفية كافأه الأمير عبد الرحمن بإسناد الوزارة
إليه مع إمارة قرطبة .

(١) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية / ١١٤ .

من مواقف الشيخ العزبن عبد السلام^(١)

ذكر الحافظ عبد الوهاب السبكي : أن رجلا
جاء إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال: رأيتك
في النوم تنشد :

و كنت كذي رجلين رجلٍ صحيحة

ورجل رمى فيها الزمان فشلت

فسكت ساعة ثم قال : أعيش من العمر ثلاثا

وثمانين سنة فإن هذا الشعر لكثير عزة ، ولانسبة بيني

وبينه غير السن ، أنا سني وهو شيعي ، و أنا لست

بقصير وهو قصير ، ولست بشاعر وهو شاعر ، وأنا

سلمي وليس هو بسلمي ، ولكنه عاش هذا القدر .

قال : قلت : فكان الأمر كما قاله رحمه الله ^(٢) .

(١) هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ،

ولد عام ٥٧٧هـ وتوفي عام ٦٦٠هـ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (١٠٢/٥) .

فهذه فراسة دقيقة من هذا العالم الرباني جاءت على طريقة السبر والتقسيم، حيث استعرض الصفات التي يتفق فيها الناس فرأى أن بينه وبين الشاعر كُثِيرٌ عزة اختلافا في عدة أمور ، ولم يبق مايمكن أن يتفق معه فيه إلا السن ، ولما كان كثير عزة قد عاش ثلاثا وثمانين سنة فإن العز بن عبد السلام قد فسر الرؤيا بأنه يعيش ثلاثا وثمانين سنة كما عاش كثير عزة ، وقد وقع ذلك كما فسر به الرؤيا رحمه الله .

وهذا الخبر يدل على سعة اطلاع العز بن عبدالسلام حيث عرف الشاعر صاحب البيت المذكور وحيث كان يعرف سيرة كُثِيرٌ عزة الشاعر مع أن الأدب ليس من اختصاص العز بن عبد السلام .

موقف للقاضي ابن العديم رحمه الله تعالى

ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة القاضي إبراهيم ابن محمد بن عمر العقيلي ابن العديم: أن ابن العديم ادعى عنده مُدَّعٍ على آخر بمبلغ فأنكر، فأخرج المدعي وثيقة فيها "أقر فلان بن فلان" فأنكر المدعي عليه أن الاسم المذكور في الوثيقة اسم أبيه، قال له: فما اسمك أنت؟ قال: فلان، قال: واسم أبيك، قال: فلان، فسكت عنه القاضي وتشاغل بالحديث مع من كان عنده حتى طال ذلك، وكان القارئ يقرأ عليه في صحيح البخاري، فلما فرغ المجلس صاح القاضي: يا ابن فلان، فأجابه المدعي عليه مبادراً، فقال له: ادفع لغريمك حقه، فاستحسن من حضر هذه الحيلة التي

استغفل بها المدعى عليه حتى التجأ إلى الاعتراف^(١) .
فهذا من فراسة القاضي ابن العديم ونباهته، فقد
اضطر المدعى عليه إلى الاعتراف بالاسم الذي ذكره
المدعي بالحيلة، ثم حكم عليه بإقراره، واختصر
القضية التي قد تطول بسبب إنكار المدعى عليه .

(١) الدرر الكامنة ١/٦٤ - ٦٥ .

موقف للقاضي مصطفى التركي رحمه الله

هو أحد القضاة في عهد الدولة العثمانية ويعرف
«كوجك مصطفى» وقد تولى قضاء الشام سنة إحدى
بعد الألف، وقد سلك في قضاائه مسلكاً حسناً، وكان
يتحرى في أحكامه ويحررها خصوصاً فيما يتعلق
بالجند ومدانتهم .

وكان يحط على المرايين، وقد دخل عليه خصمان
أحدهما جندي، فحرر عليه ولم يسع الجندي إلا الترك
لرباه، ولما فاته ما يحصل له من الربا أنكر رهنا كان
عنده للمدين، فقال للراهن: أقم عليه البينة، فقال:
إنه لا يتجرأ أحد على الشهادة عليه، فقال للجندي:
ادن مني، فدنا منه، فأخذ خاتمه منه وأعطاه للمدعي

عليه وقال له: خذ هذا الخاتم واذهب إلى بيت هذا
الرجل وقل لهم: أعطوني الرهن الذي صفته كذا
وكذا وخذوا هذا الخاتم أمانة، فذهب وجاء بالرهن
كما وصفه الراهن فاعترف به .

وكان له من قبيل هذه الفراسة أشياء كثيرة
فتهارع الناس إليه في طلب الحقوق، وكان إذا مر في
أسواق دمشق دعا له أهلها^(١) .

وهكذا استخرج هذا القاضي القوي الفطن
الرهن من ذلك الجندي الجاحد بهذه الحيلة الناجحة .

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١١٦٢ عن
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للشيخ فضل الله
المحبي .

وبغير هذا التصرف فقد كان من الصعب استخراج الحق منه لعدم جرأة الناس على الشهادة عليه .
وكذلك يكون القضاة الذين نور الله تعالى بصائرهم ووفقهم لحل قضايا المسلمين، والفراسة نور يلقيه الله تعالى في قلب المؤمن فيكون عوناً له على حل المشكلات وتجلية الأمور الخفية، ويساعد على ذلك اهتمام الإنسان بهذا الأمر واستدامة التفكير فيه، فإن من وجه تفكيره لشيء برع فيه .

من مواقف الشيخ محمد بن محمد الطيب المالكي

قال عنه الشيخ محمد خليل المرادي: وُلد بالمغرب الأقصى وحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، ثم اشتغل في حفظ المتون على والده وقرأ عليه الآجرومية وعلى الشيخ محمد السعديّ الجزائريّ السنوسية ومنظومة في العبادات مختصة في المسائل الفقهية ، ودرّس السنوسية للطلاب قبل أوان الاحتلام ورحل من بلاده في البر إلى طرابلس الغرب وما وجبت عليه صلاة ولاصيام ، ومن طرابلس ركب البحر إلى الجامع الأزهر فطلب العلم بمصر سنتين وثمانية أشهر .

ثم سافر لزيارة والدته في البحر فأسره الفرنج

وذهبوا به إلى مالطة مركز الكفر ثم نجاه الله تعالى بعد
ستين وأيام ناظرته رهبان النصارى مناظرة واسعة
وكان فيهم راهب له دراية بالمسائل المنطقية والعربية
ويزعم أن همته بارعة وكانت مدة المناظرة نحو ثمانية
أيام فأخرسهم الله وأكبتهم ووقعوا في حَيْصٍ بَيْصٍ ،
فمن جملة مناظرتهم معه في ألوهية عيسى أن قال
كبيرهم يا محمديّ : إن حقيقة عيسى امتزجت مع
حقيقة الإله فصارتا حقيقة واحدة .

قال : فقلت له : لا يخلو الأمر فيهما قبل
امتزاجهما أن تكونا قديمتين أو حادثتين أو إحداهما
قديمة والأخرى حادثة وكل الاحتمالات باطلة
فالامتزاج على كل الاحتمالات باطل أما على الأول

فإن الامتزاج مُفضٍ للحدوث قطعاً لأنه تركيب بعد
إفراد وكل تركيب كذلك لا محالة حادث والحادث
لا يصلح للألوهية ، وأما الثاني فظاهر البطلان ، وأما
الثالث بوجهيه فباطل أيضاً لأن القديمة منهما بعد
الامتزاج يلزم حدوثها والحادثة منهما بعده يلزم
قدمها فيؤدي إلى قلب الحقائق وقلبها محال ، ويلزم
أيضاً اجتماع الضدين وهو باطل باتفاق العقول .

ولما سُقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا في هذا
الطريق قال لي كبيرهم : عقولنا لاتصل لهذا الأمر
الدقيق فقلت له : هذا عندنا من علوم أهل البداية لا
من علوم أهل النهاية فبهت الذي كفر وعبس
واكفهرّ، قلت لكبيرهم : بالله عليك : أعيسى كان

يعبد الصليب ؟ قال : لا وإنما ظهر الصليب بعد قتله
- على زعمهم - ونحن نعبد شبيهه الإله فقلت له :
بالله عليك الله شبيهه ؟ قال: لا ، فقلت له : يجب
عليك حرق هذه الصلبان بالزفت والقطران
فاستشاط غيظاً وقال لي: كنت أوقعك في المهالك
وأجعلك عبرة لكن الله أمرنا بحب الأعداء ، فقلت
له : لكن الله أمرنا بيبغض الأعداء ، فقال لي : إذاً
شريعتنا كاملة فقلت له على طريقة الاستهزاء :
شريعتم كاملة لأنها تعبد الأصنام والصلبان
وشريعتنا ناقصة لأنها تعبد الله وحده لا شريك له ؟
فاشتد غضبه حتى كاد أن يبطش بي ولكن الله سلم
لمزيد اللطف بي .

ثم إن كبيرهم قال لي : يا محمديّ إني رأيت في
كتبكم الحديثة أن نبيكم انشق له القمر نصفين
فدخل نصفه من كُمِّ والنصف من الكم الآخر وخرج
تاماً من جيب صدره ومساحة البدر مثل الدنيا ثلاث
مرات وثلاث وهي ثلاثمائة وثلاث وثلاثون سنة
وثلاث فما هذه الخرافات ؟ فقلت له : أما ورد إن
إبليس جاء لسيدنا إدريس وهو يخيط بالإبرة وبيده
قشرة بيضة وقال له : أيقدر ربك أن يجعل الدنيا في
قشرة هذه البيضة ؟ فقال لي : نعم ورد ذلك ، فقلت
له : كيف يقدر ؟ فقال : إما أن يكبر القشرة أو يصغر
الدنيا ، فقلت له : سبحان الله تحلُّونه عامًا وتحرمونه
عامًا وإذا سلَّمتَ هذا فلمَ لا تسلمه لنا ؟ فغص

بريقه واصفر وعبس وتولَّى فقتل كيف قدر ، وهذا
الجواب مني من باب إرخاء العنان للإلزام وإلا
فدخول نصفي البدر في الكُمَّين باطل عند جميع
المحدّثين الأعلام لكن كبيرهم لا يعرف اصطلاح
علمائنا ذوي المقام العالي فلو أحبته بطلانه لقال لي:
رأيت في كتبكم فلا يصغي لمقالي فلذلك دافعته
بالبرهان القطعي العقلي لأنه لا يمثل بعدما رآه
للدليل النقليّ .

ثم إن كبيرهم في ميدان البحث أنكر نبوة نبينا
السيد الكامل وقال : إنه عندنا ملك عادل ، فقلت له:
ما المانع من نبوته ؟ فقال : نحن لانقول بها وإنما
نقول بشدة صولته ، فقلت له : أليس النبي الذي أتى

بالمعجزات وأخبر بالمغيبات ؟ فقال كبيرهم : أيّ معجزة أتى بها وأيّ مغيبات أخبر بها فسردت له بعض المعجزات وأعظمها القرآن وذكرت له بعض المغيبات ، فقال لي : رأيت البخاريّ من علمائكم ذكر بعضها ، ثم قال لي : إنّما علّمه ذلك الغلام يشير لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] فقلت له : بالله عليك لسان ذلك الغلام ماذا ؟ قال : أعجميّ ، فقلت له : بالله عليك لسان نبينا ماذا ؟ قال : عربيّ ، قلت له : بالله عليك نبينا يقرأ ويكتب أم أمي ؟ قال : أمي لا يقرأ ولا يكتب ، فقلت له : بالله عليك هل سمعت عربياً يتعلم من عجمي ، قال : لا ، فأفحم في الجواب وانقطع عن الخطاب .

ثم قال لي : كيف يقول قرآنكم ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ ؟ [مريم : ٢٨] وبينه وبينها ألف من السنين ؟ فقلت له : أنت أعجمي لاتعرف لغة العرب كيف ميناها ، فقال لي : وكيف ذلك؟ فقلت له : يُطلق الأخ في لغتهم على الأخ النسبي وعلى الأخ الوصفي والمراد هنا الثاني ومعنى الآية يا أيتها المتصفة عندنا بالعفة والديانة والعبودية مثل هارون الموصوف بتلك الصفات الكاملة وهذا المعنى في لسان العرب شائع وفي مجاراتهم ومجاري أساليبهم ذائع ، فوقف حمار الشيخ في الطين .

ولما رأي صغير السن وكان سني إذ ذاك نحو تسع عشرة سنة ، قال لي : تصلح أن تكون مثل ولد

(١٢٥)

ولدي فمن أين جاءتك هذه المعرفة التامة ؟ فقلت
له: جميع ما سألتني عنه هو من علوم البداية ولو
خضت معي في مقام النهاية لأسمعك ما يُصمُّ
أذنيك وفي هذا القدر كفاية ، فترك المناظرة ورجع
القهقري ، وشاع صيتي في مالطة بين الرهبان
والكبراء وكنت إذا مررت في السوق يحترمونني وما
خدمت كافرًا قط وكان سبب خلاصي رؤيا مبشرة ،
من يومها ركبت سفينة النجاة متوجهًا لإسكندرية ثم
منها لمصر القاهرة .

ثم سافرت للحجاز مرارًا ودخلت اليمن
وعُمان والبحرين والبصرة وحلب ودمشق وتوجهت
للروم ثم ألقيت عصا التسيار في بيت المقدس ،

وجاءتني الفتيا وأنا لها كاره . ومراسلاته وأشعاره
كثيرة .

وكانت وفاته في القدس سنة إحدى وتسعين
ومائة وألف ، رحمه الله تعالى ^(١) .

فهذا الشاب الذي لم يبلغ العشرين من عمره
جرت منه هذه المناظرة القوية العميقة ، وهي تدل
على نبوغ مبكر ، كما تدل على قوة الحركة العلمية في
ذلك العصر ، حيث إن هذه المقدرة العلمية الفائقة
كانت نتاج المدارس الإسلامية المنتشرة آنذاك في
المساجد ودور العلم.

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل / ١٣٤٨ - ١٣٥١ نقلا
عن سلك الدرر للشيخ محمد المرادي .

من مواقف المنصور بن أبي عامر حاكم الأندلس

قال المؤرخ ابن عذاري : ومن ذلك [أي من أخبار عدل المنصور] قصة الجوهري التاجر ، وذلك أن رجلا جوهرياً من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير ، وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنته ، وودع إلى الجوهري التاجر صرته ، وكانت قطعة يمانية . فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر ، فلما توسطها واليوم قائظٌ وعرقه مُنصبٌ دعتة نفسه إلى التبرد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط ، فمرت حداً ، فاختطف الصرة ، تحسبها لحماً ، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه

عين التاجر ، فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بعدوى ولا بحيلة ، فأسّر الحزن في نفسه، ولحقته لأجل ذلك علةً اضطرب فيها . وحضر الدفع إلى التجار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان له مابه من المهانة والكآبة ، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة . فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته ، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟ قال: مرّ مُشرقاً على سَمْت هذه الجنان الذي يلي قصرك ! يعني الرملة ، فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له :جئتني بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى ، وجاء بهم

سريعًا ، فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلال
منهم سريعًا ، وانتقل عن الإضاقة دون تدرّج ،
فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يامولانا ! مانعلم إلا
رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ،
ويتناولون السّقي بأقدامهم عجزًا عن شراء دابة،
فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة .
فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى
الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور،
فاستدناه والتاجر حاضرٌ ، وقال له : سببُ ضاع منا
وسقط إليك ما فعلت به ؟ فقال: هو ذا يامولاي ؟
وضرب بيده إلى حزمة سراويله، فأخرج الصرة
بعينها ، فصاح التاجر طربًا وكاد يطير فرحًا، فقال له

(١٣٠)

المنصور : صف لي حديثها . قال : نعم ! بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة ، إذ سقطت أمامي ، فأخذتها ، وراقني منظرها ، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها ، ودعتني فاقتني إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونًا كانت معها مصرورة ، وقلت : أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها . فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر : خذ صرتك ، وانظرها ، واصدقني عن عددها . ففعل وقال : وحق رأسك ، يامولاي ، ماضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها ، وقد وهبتها له . فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولانقص عليك فرحتك . ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفورًا عليه .

ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً من دنانيره
وللجنان بعشرة دنانير ثواباً لتأنيه عن إفساد ما وقع
بيده، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث ،
لأوسعناه جزاءً ! قال : فأخذ التاجر في الشناء على
المنصور ، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثنَّ في
الأقطار عظيم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عمملك
كما تملك إنسها ، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك!
فضحك المنصور ، وقال: اقصد في قولك يغفر الله
لك ! فعجب الناس من تल्प المنصور في أمره ،
وحيلته في تفريج كربته^(١) .

فهذا مثال على دهاء المنصور ابن أبي عامر ودقة

(١) البيان المغرب ٢/٢٨٨ - ٢٩٢ .

ملاحظته، وهذا التفوق في النظر في القضايا والبحث
الدقيق في خفاياها وملابساتها إنما هو بالدرجة الأولى
توفيق من الله تعالى لمن حملوا في أفكارهم هموم الأمة
وأصبح إحقاق الحق وإبطال الباطل مطلبهم الكبير،
فالذهن في هذه الحال يتفتق عن أنواع من مجالات
الحلول التي يصل بها صاحبها إلى حل القضايا
المشكلة ومعرفة الأمور المغيبة .

وقول التاجر للمنصور : وحقُّ رأسك من
الشرك الأصغر لأنه حلف بغير الله تعالى .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة.....
٧	من مواقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه
٤٧	من مواقف كعب بن سور رضي الله عنه
٥٣	من مواقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه
٥٥	من مواقف معاوية رضي الله عنه
٦٨	من مواقف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ...
٧١	من مواقف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان... ..
٧٢	من مواقف القاضي إياس بن معاوية
٧٩	من مواقف أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور
٨٢	من مواقف يحيى بن يحيى الليثي
٨٧	من مواقف أبي بكر الباقلاني

(١٣٥)

- ٩٠ من مواقف الأمير أحمد بن طولون
- ٩٤ من مواقف أمير المؤمنين المعتضد
- ١٠٠ من مواقف القاضي أبي حازم
- من مواقف صاحب شرطة أمير المؤمنين المكتفي
- ١٠٤ بالله
- ١٠٨ من مواقف الوزير محمد بن السلم
- ١١١ من مواقف العز بن عبد السلام
- ١١٣ من مواقف القاضي ابن العديم
- ١١٥ من مواقف القاضي مصطفى التركي
- ١١٨ من مواقف الشيخ محمد بن محمد الطيب المالكي
- ١٢٨ من مواقف المنصور بن أبي عامر حاكم الأندلس
- ١٣٥ فهرس الموضوعات